كلمة حق

•• فضل العرب والمسلمين على علم الجغرافيا والملاحة - لماذا نبغ العرب في الجغرافيا ومعرفة مسالك البحار ؟

اهتم العرب وسائر المسلمين اهتماماً كبيراً بالجغرافيا كعلم نظرى ، وكدراسة علمية ، وتفوقوا فيها تفوقاً غير مسبوق .. وكانوا أساتذة أوربا فى معرفة أقاليم الأرض وخصائص كل منها ، والخبرة بالمسالك البحرية وشبكات الأنهار ومواقع الجزر . وقد ساعد على ذلك اتساع رقعة البلاد الإسلامية بالفتوح والدعوة الإسلامية ونشاط العرب التجار المكتشف ، وروح الإقدام العربى التى شجعت العرب على القيام بالرحلات من أجل ارتياد المعمورة والتعرف على أحوال الشعوب ..

- ***معاجم البلدان .. إنجاز عربى كبير*** :

وقد ترك لنا الجغرافيون والرحالة العرب أعظم ثروة من الكتب الجغرافية تمتلكها أمة من الأمم ، وقد صارت الآن من أهم المراجع المعتمدة فى العالم كله فى جغرافية وتاريخ القرون الوسطى .. وهى تتناول الجغرافيا من شتى جوانبها الطبيعية والبشرية والاقتصادية والرياضية . وكان الجغرافيون المسلمون أول من وضع «معاجم الأعلام الجغرافية» المعروفة «بمعاجم البلدان» ، كما يحسب لهم أيضاً أنهم رسموا خرائط دقيقة للغاية صارت هادياً لأوربا فى عصور الكشوف الجغرافية .

- ***ابتكارات ومهارات العرب فى الملاحة*** :

أدخل العرب تطويرات مهمة على آلات الرصد المستخدمة فى الملاحة كالأسطرلاب وآلة الربع ، وكانوا أول من استخدموا البوصلة فى الملاحة فى أعالى البحار (والبوصلة اختراع صينى لكن الصينيين اقتصروا فى استخدامها على السير على اليابسة لا الملاحة البحرية) ، كما رسموا خرائط ملاحية على درجة عالية من الدقة وورثها عنهم الأوربيون .. وكل ذلك أتاح للبشرية أن تدخل عهد ارتياد أعالى البحار ، بعد أن كانت الرحلات البحرية مقصورة على السير بمحاذاة الشواطئ ، ويتواكب مع ذلك تطوير العرب لصناعة السفن وتأسيسهم لدور الصناعة البحرية . ومن ثم فلم يكن من قبيل المصادفة أن تنطلق

الكشوف الجغرافية من أسبانيا والبرتغال اللتين عاشتا قروناً طويلة فى الظلال الوارفة للحضارة العربية الإسلامية !.

- ***أسبانى يستشهد بفضل العرب فى الملاحة*** :

ونستشهد فى ذلك بمقولة «خوان فيونيه» الأستاذ بجامعة برشلونة فى كتاب «الثقافة الأسبانية العربية فى الشرق والغرب» المنشور عام ١٩٧٨ والذى حملت طبعته الفرنسية المنشورة فى عام ١٩٨٥ العنوان التالى «بم تدين الثقافة لعرب أسبانيا؟» ، حيث يقول : «ومن جملة الخدمات التى قدمها العرب للثقافة الإنسانية نقل خبراتهم فى مجالات الملاحة البحرية وهندسة وصناعة السفن ، ورسم الخرائط الجغرافية والملاحية ، نظرا لما أحرزوه من سبق فى معرفة أحوال الطقس وتقلباته . لقد أدخلوا هذه العلوم إلى الأندلس فى زمن مبكر ، وإليهم يرجع الفضل فى عبور المحيط الأطلسى بعد ذلك بعدة قرون ، ولا شك أنهم قد أفادوا من تقديم الفينيقيين الذين حذقوا قبلهم الملاحة فى سواحل البحر المتوسط ، لكنهم طوروا تلك العلوم ومهروا فيها ، إذ قاموا ببناء الأساطيل التجارية والحربية ، وسيروها فى مياه الخليج ومياه البحر المتوسط ، وأضحوا إبان حكمهم للأندلس سادة البحار» .

- ***عظمة الأسطول العربى القديم*** :

كما نستشهد بالمقولة التالية للمستشرق النمساوى «فون كريمر» :

«.. ومما يبين لنا أن الأسطول العربى القديم كان نموذجا - يحتذى لأساطيل الأقطار الأوربية ، أن الكثير من المصطلحات البحرية العربية لا تزال شائعة على ألسنة البحارة فى جنوب أوربا» .

- ***أبرز الجغرافيين والملاحين العرب*** :

الشريف الإدريسى (أكبر جغرافى عرفته الحضارة الإسلامية) .

التيفاشى (أكبر علماء الجيولوجيا وله مؤلفات فى الجغرافيا) .

أحمد بن ماجد (أشهر ربابنة البحار فى كل التاريخ العربى) .

ابن بطوطة (صاحب أكبر رحلات استكشافية فى التاريخ العربى) .

[سيأتى الحديث عن أحمد بن ماجد ، وابن بطوطة فيما بعد] .

من هو الشريف الإدريسى ؟

هو: أكبر عالم جغرافى فى تاريخ الحضارة الإسلامية ، بل وأكبر جغرافى على الإطلاق حتى عصر الكشوف الجغرافية الأوربية (أواخر القرن الخامس عشر، وأوائل القرن السادس عشر الميلاديين) .

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودى الحسنى، وينتسب للأسرة الإدريسية العلوية فى المغرب ، والتى يمتد نسبها للإمام على- رضى الله عنه - لذلك يلقب عادة بالشريف الإدريسى ، كذلك بالصّقلّى لكونه أمضى سنوات طويلة من حياته فى صقلية ، ويلقب أيضاً بـ «سطرابون العرب» تشبيها له بالجغرافى الإغريقى الكبير «سطرابون strabo» الذى عاش بين القرنين الأول قبل الميلاد والأول الميلادى ؛ وهو تشبيه يقوم على اقتدار الإدريسى الكبير فى جغرافية القارة الأوربية .

ولد الإدريسى فى سنة ٤٩٣هـ (١١٠٠م) .. وتوفى فى سنة ٥٦١ هـ (١١٦٦م) .

●● إنجازات الإدريسي الجغرافية :

- ***خرائط الإدريسى الجغرافية*** : قسم الإدريسى النصف الشمالى للكرة الأرضية إلى سبع مناطق متباينة ، ثم قسم كلا منها ، بدوره ، إلى عشرة قطاعات متساوية فى عدد خطوط الطول بها . ورسم لكل من هذه القطاعات السبعين خريطة شاملة للعالم عرفت بخريطة الإدريسى ، وهى أدق وأعظم ما وصل إليه علم الجغرافيا وفن رسم الخرائط [cartography] حتى ذلك العصر . وخرائط الإدريسى مبنية على معرفة راسخة بكروية الأرض ، وقد استمد أصولها من المصادر الأوربية والإسلامية معاً، وتناولها بالتصحيح القائم على الخبرة الشخصية التى استقاها من رحلاته ، وما جمعه فيها من معلومات . وصارت خرائط الإدريسى بدورها أساسا للخرائط التى رسمت بعد ذلك فى عصر النهضة، وأصبحت بمثابة نقطة البداية للكشوف الجغرافية فى عصرها الذهبى .

- ***صاحب الكرة الفضية*** : صنع الإدريسى لروجر الثانى كرة من الفضة رسم على سطحها خريطة العالم، لتصبح بذلك ممثلة للكرة الأرضية ، وكان قطر تلك الكرة يبلغ المترين طولا ووزنها يقدر بوزن رجلين . ومن المؤسف أن الكرة فقدت فى عهود الجهل والتعصب التى سادت بعد عصر ملوك النورمان الأولين !

- ***مؤلفات الإدريسى القيمة فى علوم الجغرافيا :***

للإدريسى ثلاثة كتب فى علم الجغرافيا ، من أبرزها وأشهرها كتاب «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» . يعد هذا الكتاب من أعظم أعمال الإدريسى ، ويطلق عليه فى تراثنا العربى والإسلامى اسم «كتاب روجار» أو «الكتاب الرجارى» نسبة للملك روجر الثانى الذى ألف الإدريسى كتابه فى كنفه وأهداه إليه . فرغ الإدريسى من تأليف «نزهة المشتاق» عام ٥٤٩هـ (١١٥٤م) ، وصادف الكتاب نجاحا كبيرا فى أوربا ، ومنه استقى الأوربيون معارفهم الجغرافية عن قارتهم ، وعن العالم على مدى عدة قرون ، وقد نشر مختصر له فى نهاية القرن السادس عشر الميلادى ، وترجم إلى اللاتينية .

وقد جمع الإدريسى مادة هذا الكتاب من المصادر الإغريقية والإسلامية ، وأضاف إليها الكثير من خبراته الشخصية ، وتقاريره التى تمخضت عنها أسفاره الواسعة ، فجاء الكتاب موسوعة شاملة تجمع بين الجغرافيا الوصفية ، والجغرافيا الفلكية ، والجغرافيا الرياضية ، ففيه نجد عالمنا يتناول الأقاليم المناخية السبعة للأرض التى صورها فى خريطته ، ويصف بلدانها ، وجبالها ، وأنهارها ، وغلاتها ، وأجناسها البشرية ، وأنشطتها الاقتصادية ، وصناعتها ، وفنونها ، وثقافاتها ، وقد بلغ درجة عالية من التمكن والاقتدار خصوصا فى وصفه للبحر المتوسط ، وما يلحق به من بلدان ، ووصفه للقارة الأوربية وأقاليمها . وساق الإدريسى فى ثنايا كتابه معلومات طريفة للغاية ، وآراء خطيرة الأهمية ، منها مثلا : هذه المقولة العجيبة عن البحر المتوسط «.. كان بركة منحازة[١] ، ولم يكن يتصل ببحر الظلومات[٢] ، وكان أهل المغرب يغيرون على الأندلس. إلى أن شكوا أمرهم إلى الإسكندر الذى أحضر الفعلة والمهندسين وأمر بحفر الأرض بين طنجة وبلاد الأندلس ، وبنى رصيفا ووصل بين البحرين فطغى الماء وغرقت مدن كثيرة» .

إذا ما تأملنا هذه الكلمات ، وإذا ما تغاضينا عن الإشارة إلى الإسكندر والعمل الهندسى المزعوم الذى تنسبه هذه المقولة إليه ، فسوف نجدها تتضمن حقيقتين علميتين أثبت العلم صحتهما :

---

(١) أى معزولة .

(٢) الاسم الذى يطلق على المحيط الأطلنطى فى المصادر التراثية العربية .

الأولى : وهى حقيقة جيولوجية – أن البحر المتوسط كان فى العصور الغابرة يتكون من بحيرتين : غربية ملحة ، وشرقية عذبة .. وكان يغذى هذه الأخيرة نهر النيل ونهر قديم توقف عن الجريان يعرف بالنهر الأدرياتى ، وعند نهاية العصر الجليدى منذ ٢٥ ألف عام ارتفع مستوى الماء فى المحيط الأطلنطى بعد ذوبان البقعة الجليدية الهائلة التي كانت تكسو القسم الشمالى من كوكبنا ، فاتسع البحر المتوسط واتصل بالمحيط الأطلنطى ، وغرقت أراضٍ لم تكن مغمورة فى السابق .

والثانية : وهى حقيقة أنثروبولوجية – أنه حدثت بالفعل هجرات قديمة من أقصى غرب الشمال الإفريقى إلى شبه جزيرة أيبيريا عبر منطقة الاتصال البرى قبل اتصال البحر المتوسط بالمحيط الأطلنطى .

ومن الوقائع التى ذكرها هذا الكتاب القيم : الواقعة المعروفة بـ «قصة الإخوة المغرورين» ، وهم ثمانية عشر رجلا أندلسيا جميعهم إخوة وأبناء عمومة أبحروا فى مطلع القرن الحادى عشر الميلادى فى مركب شراعى من لشبونة ، على الشاطئ الغربى لأسبانيا ، بغرض استكشاف بحر الظلمات .

وقد سار هؤلاء الرجال غربا ثم جنوبا ورسوا على جزيرة ، ثم واصلوا الإبحار جنوباً ، واكتشفوا جزيرة أخرى . ويذهب بعض المؤلفين فى العصر الحديث إلى جزيرتين ربما كانتا من جزر الخالدات[1] ، وإن كان الباحث المغربى الأستاذ عبد الله الجرارى يذهب إلى أنهما تكونتان من جزر أمريكا الجنوبية اعتمادا على وصف الإدريسى لسكان الجزيرة البعيدة بحمرة اللون ، وعلى تقديره المسافة بينهما وبين لشبونة بستين يوما من الرحلة البحرية .

موقف الغرب من الإدريسى :

للأسف الشديد لاقى الإدريسى من الغرب جحودا شديداً ، فى حين أنه أحد الأعمدة الأساسية التى استندت إليها النهضة الأوربية ، بل إن النهضة بدأت من عند موطئ قدميه فى جنوب إيطاليا . واليوم –وباستثناء مؤلفات بعض المستشرقين المنصفين – لا نجد اعترافا كافيا بفضله فى المراجع والموسوعات الغربية الكبيرة ، ونجد الموسوعات ومعاجم الأعلام البشرية الصغيرة تغفل ذكره تماما فى الوقت الذى تحتفى فيه بمن لا قيمة لهم من الجغرافيين الغربيين.

ومن أفضل المقولات الغربية فى حق هذا الجغرافى العربى العظيم المقولتان التاليتان :

---

(١) هى جزر الكنارى الواقعة قرب الشاطئ الغربى للمغرب والتابعة الآن لأسبانيا .

– الفرنسى «جاك ريسلر» فى كتابه «الحضارة العربية» : «.. ولم يكن بطليموس الأستاذ الحقيقى فى جغرافية أوربا ، بل كان الإدريسى الذى ولد عام ١١٠٠م وتخرج فى قرطبة ، والذى عاش فى بالرمو فى بلاط روجر الصقلى فى منتصف القرن الثانى عشر ، فمصورات الإدريسى التى تقوم على معرفة كروية الأرض كانت تتويجا لعلم المصورات الجغرافية فى العصر الوسيط بوفرتها وصحتها وشمولها .

– ***البارون دى سيلان*** : يقول عن كتابه «نزهة المشتاق» : «.. إنه كتاب لا يقارن به أى كتاب جغرافى قبله ، وهو لا يزال دليلنا إلى بعض أنحاء الأرض» .

وفيما يتعلق بإعادة طبع كتابه وخرائطه ، فقد طبع فى لندن عام ١٨٦٦ قسم من كتابه «نزهة المشتاق» وصدر بعنوان «صفة المغرب والسودان ومصر والأندلس» . وفى عام ١٩٢٦ نشر المستشرق «كوتارد موله» خرائط الإدريسى وأعاد المجمع العلمى العراقى نشرها عام ١٩٥١ . وفى السبعينيات أعاد الإيطاليون طبع «نزهة المشتاق» .

●● من هو التيفاشى ؟

هو عالم عربى بارز ، يعد أحد نوابغ علم الجيولوجيا وأحد مؤسسيه الأوائل ، كما اهتم بدراسة الجغرافيا وله بعض المؤلفات فى هذا المجال .

نسبه ولقبه : هو «شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبى بكر بن حمدون» ، ويعرف باسم «التيفاشى» نظراً لمولده بقرية تدعى «تيفاش» تقع بالقرب من بلدة «قفصة» بغرب وسط تونس ، كما يعرف أيضا بـ «القفصى» .

وقد ولد فى سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤م) .. وتوفى سنة ٦٥١ هـ (١٢٥٣م) .

– ***مؤلفات التيفاشى فى علم الجغرافيا*** :

* ***«سجع الهديل فى أخبار النيل»*** : وهو موسوعة جغرافية عن نهر مصر وأحواله من الشح والفيضان ، وحوضه – أى الأرض التى يجرى بها – وما تحويه من محاصيل وثمار .

* ***«سرور النفس بمدارك الحواس الخمس»*** : وهو كتاب فى الجغرافيا – برغم أن عنوانه ربما لا ينم عن ذلك .